بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 16 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة الإنسان

التاريخ:13\12\2022 م كتبه: عبدالله ضيف الستري

وصل الكلام إلى الخامسة في السورة المباركة التي نبحث عنها، وهو قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُورا﴾.

قبل أن ندخل في شرح مفردات هذه الآية المباركة لابد أن نجري مقارنة بين هذه الآية والآية التي سبقتها؛ باعتبار أنه على كل تقدير يوجد انسجام وتناسق ووحدة سياق بين هذه الآية وبينما سبقها، سواء قلنا بأن الباري تبارك وتعالى بعد أن ذكر انقسام الإنسان طائفة شاكرة وطائفة كافرة بيّن عاقبة كل واحد من هاتين الطائفتين، فتقدمت عاقبة الكافر والكفور، والآن يذكر عاقبة الشاكر. فيكون بين هذه الآية وبين ما سبقها تمام وكمال الانسجام.

أو لم نقبل هذا الشيء، وقلنا إن هذه الآية هي مطلع لمقطع جديد، المقطع الأول انتهى، وما يرتبط بخلق الإنسان وإعداده استعداداً وأدواتاً للهداية، واهتداء البعض بالفعل فكان شاكراً والبعض عدم الاهتداء بالفعل فكان كفوراً، وبين عاقبة الكافور انتهى المقطع الأول. والآن بدأ بمقطع جديد.

لو قلنا بهذه المقولة وهي مستبعدة، حينئذ ندخل في بحث السياق بين المقاطع، أن البحث السياقي كما يكون في داخل آية واحدة، كذلك يكون بين آيتين، كذلك يكون بين مقطعين، فيكون انسجام هذه الآية مع ما قبلها من باب إيجاد النموذج الأفضل، وطرح النموذج الأفضل لكي يختار، بعد أن بيّنا في المقطع السابق نموذج الكفور وما هي عاقبته، طرح في هذا المقطع الجديد النموذج الأفضل ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ﴾ فعلى كل تقدير يوجد انسجام بين هذه الآية وبين ما تقدم عليها.

لكن على الرغم من هذا الانسجام نجد أن القارئ لهذه الآيات يرصد مجموعة من الاختلافات بين هذه الآية وبين الآية السابقة، بين آية الوعيد –وهي الآية السابقة– وبين آية الوعد –وهي الآية الحالية–

فلابد أن نبحث عن سر هذا الاختلاف؟ وهذا للأسف أغفل في الكتب التفسيرية، فكان الهم الأعظم للمفسرين ينصب على تفسير المفردات ودفع الشبهات عن الآيات من دون أن يلحظ البحث السياقي والترابط بين الآيات من جهة، ووجه الاختلاف بينها مع أنها واردة في سياق واحد.

من جملة الأمور التي نرصدها في التفاوت بين آية الوعد وآية الوعيد:

الفارق الأول: هو أن الوعيد ابتدأ بالفعل الإلهي ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا﴾ فاعتدنا فعل إلهي، وآية الوعد ابتدأ فيها بعنوان من يثبت لهم النعيم الذي هو يرجع إلى فعل إلهي ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ﴾.

ولعل السبب والسر في هذا الفرق يرجع إلى أحد تبريرين:

التبرير الأول: أننا عرفنا في البحوث السابقة أنه يوجد في هذا السياق نوع من اللف والنشر المشوش، شاكراً وكفوراً، اعتدنا للكافرين، ففي مقام التصنيف أخّر الكفور، وفي مقام العاقبة قدم عاقبته، فهذا لف ونشر مشوش.

من خصائص اللف والنشر المشوش قوة الارتباط، الآن بعد أن كان الكفور الذي كان بمعنى المنكر والكافر ذكر أخيراً وجاءت العاقبة بعده مباشرة ما زال في الذهن؛ لأنه ذكر أخيراً، فلا يحتاج المتكلم أن يكرره للتو انتهينا منه، فمباشرة بدأ بالعاقبة التي هي فعل من أفعال الباري تبارك وتعالى ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا﴾.

بخلاف الشاكر، فالشاكر بعد أمره؛ لأنه ذكر أولاً، فاحتاج إلى ذكر عنوان يصدق عليه فبدأت الآية التي تتعرض لعاقبته إلى قوله ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ﴾.

التبرير الثاني: يرتبط بما ذكرناه في البحث السابق من إرادة التهويل والتخويف.

في علوم البلاغة نص القدماء على أن تقديم شيء يكونوا للاهتمام بحسب الغرض، لا للأهمية مطلقاً، فما لك غرض به تقدمه، ومجرد أن قدّم الفعل الإلهي في مقام الوعيد هناك شيء يؤثر في النفس ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا﴾ هيئنا لهم، هذا التخويف وهذا التهويل ربما كان يفوت لو أخّر مسألة التهيئة والاعتداد، فلأهمية ذلك في مقصود المتكلم قدمه.

بخلاف مسألة الوعد، فالوعد ليس فيها تخويف ولا تهويل، فجاء بالصفة المرغب بها ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ﴾.

فإذاً هذا التفاوت الأول بين آية الوعيد وبين آية الوعد يمكن تبريره بأحد هذين التبريرين، ولا مانع من اجتماعهما.

الفارق الثاني: في وعيد الكفار لا يوجد ذكر صريح لنوعية العذاب، وفي وعد الأبرار يوجد ذكر تفصيلي ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُورا﴾ وبعد ذلك تأتي آيات أخرى تذكر أنواع من النعيم، ففي مقام الوعد فصّل النعم والمجازاة الإلهية المعدة لهؤلاء، بينما في مقام الوعيد أجمل.

وهذا يرجع أيضاً إلى النكتة التي أشرنا إليها من إرادة التهويل التخويف وما يحمله الإجمال من التهويل والتخويف، خصوصاً مع أشرت إليه -في البحث السابق- من أنه ذكر أدوات العذاب من دون أن يدخل في العذاب ليترك الذهن يسرح في مجال تخيل نوع العذاب، فيعطي النفس رهبة وخوفاً أكثر مما لو ذكر العذاب مباشرة، كشخص تقول له أريد أن أعذبك بأن أقلع سنك من دون تخدير فأعرف هذا مآله هذا، ومرة تقول له أريد أن أعذبك بعذاب لا يخطر على ذهنك، فهذا فيه أكثر إرعاباً للنفس، ففي مقام التخويف يناسبه الإجمال.

الفارق الثالث: أن العنوان المذكور في الوعيد كان متناسباً مع العنوان المذكور في التصنيف، إما شاكراً وإما كفوراً ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا﴾ الكافر في الاصطلاح القرآني هو المنكر، والكفور فعول من الكافر بمعنى المبالغة، فبينهما تمام الانسجام، عنوان واحد، اختلفت الصيغة بين صيغة مبالغة وصيغة الفاعل.

بينما في آية الوعد اختلف العنوان المذكور فيها مع العنوان المذكور في التصنيف، العنوان في التصنيف هو شاكر، والعنوان المذكور في آية الوعد هو الأبرار، والأبرار مرتبة من مراتب الشاكرين، وليس مرادفاً للشاكر، هذه أيضاً لابد أن نقف عندها. ونرجع إليه بعد قليل.

الفارق الرابع في آية الوعيد عبر بالماضي ﴿أَعْتَدْنا﴾ وفي الوعد عبر بالمضارع ﴿يَشْرَبُونَ﴾ وسائر الآيات التي سوف تأتي، وأيضاً غير الأسلوب، أسلوب الماضي وأسلوب المضارع.

لكي يتضح لنا هذان اختلافان الأخيران ينبغي أن نلتفت إلى نكتة غاية الأهمية، وهي أن الإنسان في العادة في مقام الوعيد والتهديد بالعقوبة والعذاب والتخويف وما شابه ذلك من جهة يكون الإجمال

ادعى للتخويف كما ذكرنا، ومن جهة أخرى بحاجة إلى أن نثبت للطرف الآخر تحقق وقوع هذا الشيء، لا مجرد أنه سوف أفعل ذلك وذلك وربما لا أفعله. فلذا يناسبه تصوير الشيء على أساس أنه أمر منجز وانتهى، فيناسبه الفعل الماضي، فقد انتهى أمرك.

بينما في مقام الوعد والتشويق يناسبه استحضار الصورة، الذي يشوقني أن أشاهد هذا المشهد أمامي، واستحضار السورة يناسبها الفعل المضارع.

في مقام الحث والتشويق لابد أن استعمل أسلوباً يستحضر السامع والمخاطب ما يشوقه، لا أنه مضى وانتهى أو أنه سوف يأتي، فيناسب استعمال الفعل الحاضر المضارع.